د. محمد شوقي الزين

مناهج فلسفية معاصرة

الحصة السادسة

التأويلات العلمية

العِلْمُ بوَصْفِهِ مُمَارَسَة

- غالبا ما يلتزم العلماء (فيزيائي، بيولوجي، كيميائي، إلخ) الصمت إزاء الحركة الدؤوبة التي تعجُّ بها مخابرهم ويكتفون بعرض نتائجهم العلمية ويتحصَّلون بموجبها على اعتراف رسمي بتقليد الأوسمة أو الجوائز (أبرزها جائزة نوبل) أو باكتساب الشهرة والصيت باللجوء إلى معارفهم وتفسيراتهم (السياسة، الإعلام). فهم يتعاملون مع **«موضوع» البحث** وليس مع **«شروط» هذا البحث**، تاركين للمؤرّخين أو الفلاسفة أو علماء الاجتماع العناية بدراسة تاريخ العلوم والفلسفات المترتّبة عنها والشروط الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية الداخلة في تشكيلها.

- فالعلم هو **«ممارسة»** بامتياز تصدّقه المؤسَّسات التي يشتغل فيها العلماء (مخبر، أكاديمية، معهد)، **العمليات** التي يقومون بإجرائها (ملاحظة، تجريب، تقرير)، **العلاقات** التي يقيمونها فيما بينهم (تعاون، تضامن، تنافس)، **البرامج** التي يقومون بالمصادقة عليها (ميزانية، رزنامة، تقسيم العمل، توزيع النشاطات).

العِلْمُ بوَصْفِهِ رُؤْيَة العَالَم: مَسْأَلَة النَّمُوذَج

- معروف عن **توماس كون** 1922-1996م Thomas S. Kuhn إعادة تحيينه لمصطلح معرفي أكسبه شُهرة عالمية وهو «النموذج أو البرادايم» (paradigm). قام بشحنه بحمولة نقدية وابستمولوجية وافرة بعدما كان محصوراً في الدراسات الألسنية. لقد أوضح ذلك في كتابه الشهير **«بنية الثورات العلمية»** (شيكاغو، 1962)، ثم بيَّن المشكلات النظرية المتعلّقة بإرساء النموذج مفهوماً إجرائياً في كتابه الجديد **«التوتُّر الجوهري: التراث والتغيير في العلوم»** (شيكاغو، 1977).

- ما يقصده كون بالنموذج ينطوي على دلالتين: **1. الدلالة اللغوية** بوصفه «النمط» الذي يسير وُفقه الفرع العلمي؛ **2. الدلالة الهيكلية** بوصفه «القالب المعرفي» الذي تنخرط فيه الفرضيات العلمية. الدلالة الأولى هي «فرعية» وتخصُّ طريقة الاشتغال العلمي؛ والدلالة الثانية من النموذج هي «إجمالية» وتخصُّ العلاقة بين الفاعلين العلميين.

العِلْمُ بوَصْفِهِ تَأْوِيلاً لِلْعَالَم

- الأمر الذي يحدِّد أفعال العلماء هو النموذج قالباً معرفياً، ويحدّد أيضاً فرضياتهم وأسئلتهم وانشغالاتهم الإبستمولوجية، أي كل المعطيات التي يشتركون في معالجتها، تحدِّد الكيفية التي يعالجونها بها، وتشتمل على أحكام أو تصوُّرات أو تقاليد يقومون ببسطها في إجراءاتهم

- هناك مشكلات إبستمولوجية تصاحب النموذج وقد تكون السبب في بروز الخلافات وسوء الفهم أو سوء التفاهم واستباق الوقائع، إلخ. فالغرض من إرساء مفهوم النموذج كقواعد وتصوُّرات ذهنية وثقافية، ومن ثم **كمشكلة تأويلية**، هو من أجل الوقوف على الممارسات أو الإجراءات، أي جملة القرارات أو الأحكام أو العمليات التي الداخلة في بروز المنظومة العلمية كحقيقة تاريخية.

- فالعلوم لها تاريخ طويل من التشكيل النظري والتأسيس العملي وما يصاحبه من عوائق وما يقع فيه من أخطاء وسوء التأويل أو التقدير.

مُعْجَم النَّمُوذَج: العِلْم السَّوِي، الأَزْمَة، الثَّوْرَة العِلْمِيَّة

- **«العلم السويّ» (Normal Science):** تعاضد الإرادات وتناسقها من أجل معالجة المشكلات وإيجاد الحلول.

- **الأزمة (Crisis):** سوء الفهم والتفاهم وتعارض التأويلات العلمية للظاهرة المراد تفسيرها.

- **«الثورة العلمية» (Scientific Revolution):** تغيير في الرؤية إلى الظواهر وإلى العالم بتغيير المعجم العلمي والتقاليد المعرفية الراسخة: «إنَّ أَزْمَة النَمُوذَج [...] تَمَسُّ التَغَيُّر في المُعْجَم أَيْنَ يَقَعُ صُلْب التَغْيير» (Rupert Read, « Kuhn, est-il le Wittgenstein des sciences ? », *Archives de philosophie*, vol. 66/4, 2003-2004, p. 430).

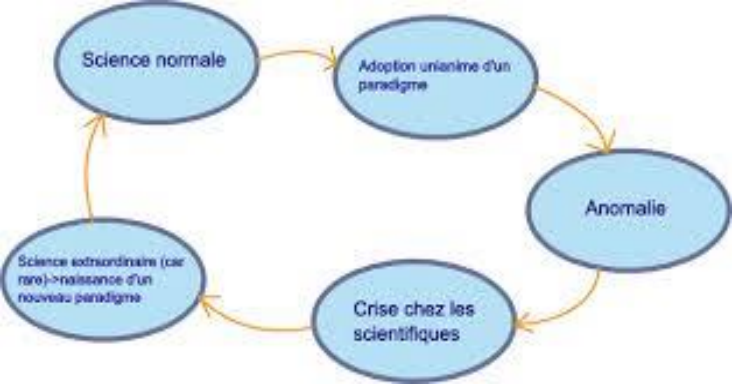

مَرَاحِل تَشَكُّل النَّمُوذَج كَتَأوِيلٍ عِلْمي

يتميَّز **العلم السويّ بحل الألغاز** داخل إطار مُحكَم لا مجال فيه لإعادة النظر في البديهيات المتداولة والتقاليد المشتَركة. لكن عندما تَبرُز بعض **المشكلات**، التي تعود إلى **طبيعة الموضوع** ذاته أو إلى **سوء الفهم أو التأويل**، فإنَّ العلم يدخل في **مرحلة الأزمة** التي **تتباين فيها المواقف** ويعجز المجتمع العلمي عن إيجاد الإجماع الكفيل بضمان السيرورة، ويتعرَّض النموذج للانتقاد و**إعادة المراجعة**، وأحياناً للنقض ممّا يفقده تماسكه ويدفع إلى تبنّي مواقف جديدة بناءً على بحوث مغايرة. **فالتغيُّر** في العادات الراسخة وفي المعاجم أو المصطلحات المستعمَلة هو الذي يتيح **التغيُّر في التصوُّر** الذي يشكّلونه حول العالم الذي يتطلّب أدوات جديدة ورؤى مختلفة.

«عِنْدَمَا يَنتُج ذَلك، أيْ عِنْدَمَا يَعْجِز المتخصِّصُون عَنْ تجاهُل المظَاهِر الشَاذَّة التي تُلَغِّم التُراث القَائم في الممارَسَة العِلْمِية، فإنَّهم يَبْدَؤُون في البُحُوث الطَّارئة أو الاسْتِثْنَائية التي تَقُودُهم في النِّهَايَة إلى وحْدَة جَدِيدَة مِنَ المعْتَقَدَات أو قَاعِدَة جَدِيدَة في مُمارَسَة العِلْم» (Th. Kuhn, *La structure des révolutions scientifiques*, trad. Laure Meyer, Paris, Flammarion, 1983, nouvelle édition 2000, coll. « Champs », p. 23).

البُعْد التَّرَاكُمي والثَّوْري في العِلْم

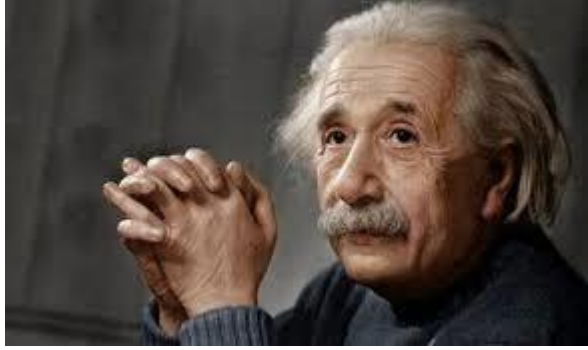

- حتى القرن التاسع عشر كان العلم يشتغل بأدوات **التصوُّر النيوتوني** للعالم الذي كان يمثّل العلم السويّ وينخرط في رؤية متماسكة يخضع إليها المجتمع العلمي، لكن بظهور المشكلات النموذجية وبتفاقم المعضلات البنائية المرتبطة بهيكل النموذج وبالبنيات المعجمية المتداولة تمَّت إعادة النظر في النموذج ووضعه على محك المعالجة النقدية وانجرَّ عنه سجالات صاخبة وجدالات حامية الوطيس انتهت بتلاشي النموذج النيوتوني وبروز **النموذج النسبوي** كما سنَّه أينشتاين قبل مئة سنة.
- تكمن المشكلة مع إدراك النموذج في الأخذ، في الوقت نفسه، **بالطابع التراكمي** و**بالطابع الثوري** للمعرفة العلمية، أو ما يسمّيه توماس كون نفسه **«التوتُّر الجوهري»** بين التراث الراسخ والإبداع العلمي الحثيث والمتواصل.
- لا شك في أنَّ التغيير في رؤية العالم بالتعبير الألماني (Weltanschauung) ينجرُّ عنه تغيير في طريقة الوصف والقراءة، ومن ثمَّ تعديل في الأدوات وفي الإجراءات، وإرساء دلالات وتأويلات جديدة.